

## الفكر والحرية في برنامج العمل الوطني

بيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨ ، وهما الوثيقتان اللتان أصبحتنا المرجع النظري الأول لبرامج العمل والتخطيط السياسي في مصر .  
انه بايجاز شديد فكر من ذلك اتنوع الذي يؤمن بأن الانسان أمن ما في أوجود وأن البناء الذي يشيده بشر احرار متساوون متساندون مستنبرون هو البناء الذي لا يقهر أبدا ولا ينهدم . وهو الفكر الذي يبدأ منطلقا من استبصار بهداف اساسي هو ضرورة تحرير الانسان والجماعة من أجل بناء وطن حر ، وضرورة تكتيسل جهود الناس والجماعة من أجل بناء وطن قوي يكفل لابنائنا الرخاء والامن والسلام .

من المؤكد اننا سنقرأ - وقد قرأنا بالفعل - الكثير من الكتابات القيمة التي شرحت وستشرح الجوانب المختلفة لهذا البرنامج ( وسنعرض لبعضها بايجاز بعد قليل ) .

ولكن هذا البرنامج ليس سوى الاساس « انظري » الذي ستبنى على ضوءه خطة العمل الفعلية التي ستضعها وزارات الحكومة المختلفة لكي تعرض على اللجنة المركزية لمناقشتها والموافقة عليها . ومعظم ما كتب بالفعل عن هذا البرنامج سيتعرض بالضرورة للخطوط العامة لتلك الخطط التطبيقية . ولكن اذا كان هذا البرنامج هو دليل العمل الذي ستهدي به الخطة التطبيقية فان « الفكر » في مثل هذا الدليل بكتسب أهمية خاصة ، لانه الاساس الذي انطلق منه ، ولانه سيكون على الدوام المحك والفصل في كل ما سيواجهنا من مشكلات وفي كل ما قد تختلف حوله أو نسعى الى الاتفاق عليه .

حينما يقول البرنامج : « ان أخطر ما واجهنا فكريا خلال السنوات الماضية هو ذلك التناقض المصطنع بين الاشتراكية والحرية والذي افعله أعداء الاشتراكية وأعداء الحرية على حد سواء .. » فانه يحدد خطأ فكريا حاسما سيكون علينا ان نحققه في الواقع العملي والممارسة الحرة ، مضمونه هو ضرورة تحقيق المثل الاعلى الحقيقي للاشتراكية - وهو تحرير الانسان تحريرا فعليا من العوز والقهرة والخرافة - في أثناء ومن خلال خطوات التحول نحو البناء الاشتراكي، اذ لم يعد هناك سبيل الى الفصل بين البناء الاشتراكي وتحرير الانسان أو تأجيل الثانية على زعم ضرورة هذا التأجيل لمصلحة الاولى .

ولو تبعنا الخط الذي رسمه في البرنامج فكرة الحرية لعثرنا على علامات بارزة تشير الى اتجاهات رئيسية وتنطلق كلها من تصور واحد عن الحرية ، تصوره أساسه هو الترابط الوثيق بين الاشتراكية والحرية . فالاشتراكية التي تحرر الانسان من الفقر والحاجة ينبغي أيضا ان تحرر الانسان العامل من القهر ومن الخوف . من تلك العلامات ، يمكننا ان نقف عند عبارة وردت في حديث البرنامج عن الملكية التعاونية تقول :

... « وأساس التعاون هو حرية الانضمام وانتخاب مجالس الإدارة انتخابا حرا ومباشرا .. » .

في هذا المجال « الاقتصادي » تنبى فكرة الحرية باعتبارها حرية الانسان في ان يستفيد من ارتباطه بالجماعة ، على شرط ان تكون « قيادة العمل التعاوني الجماعي » أي « مجالس الإدارة » قيادة منتجة تمثل الجماعة تمثيلا حرا وحقيقيا يكفل اقناع الفرد بوجود فرصة حقيقية له لكي يستفيد من ارتباطه بالجماعة من خلال النظام التعاوني الذي يقوم لكي يستفيد منه الجميع .

- حرية الفرد مرتبطة بحرية المجتمع .
- مقاومة الجهل والامية وتنوير عقل الانسان .
- الوطن هو ما يكفل للانسان ازدهار شخصيته بالثقافة والعمل ، وازدهار حريته بالامن والقدرة على الاستثمار . فالوطن تاريخ ممتد عبر الزمن ، وهو حاضر قبائمه ومستقبل تضمنه بالعمل والنضال الجماعي المشترك . انه التراث القابل للاشعاع باستمرار ، وهو الاجيال المتعاقبة وثمرات جهودها على هذه الارض . وهو الاجيال المقبلة التي تنتظر ميراثها العادل وحربتها وكرامتها من أجيال الحاضر العاملة . الوطن هو نتاج عمل هذا الشعب في كل الأزمان .
- ينبغي ان يكون العمل متعة لا مشقة ، والعمل هو القيمة الأساسية التي يقيم على أساسها الانسان .
- الانسان الاشتراكي انسان أخلاقي ، والمجتمع الاشتراكي مجتمع أخلاقي أيضا ، لانه مجتمع يحترم الحقيقة لا الاشاعة ، ويحترم العمل لا « الفهولة » ، يسعى الى ان يسفر الانسان فيه عن وجهه الحقيقي لا أن يرتدي المزيد من الاقنعة .
- البحث العلمي هو الوسيلة لفهم قوانين الواقع والطبيعة وعقباتها . والتطبيق العملي لمكتشفات العلم هو وسيلة الاستفادة من هذا الفهم .
- التخطيط هو السمة الاساسية للعقلية العلمية وهو السمة الاساسية في العقيدة الاقتصادية للاشتراكية .
- التخطيط للعمل القومي والملكية العامة لوسائل الانتاج هما عصب البناء الاشتراكي .

- الاساس الفلسفي للثقافة الاشتراكية هو الانتماء الكامل للجماهير والتواجد معها ، الامر الذي لا يمكن ان يتحقق الا اذا ارتبطت الثقافة بالواقع ، بالمشاكل البعيدة المدى وبالمشاكل اليومية ، وبالظروف التي يعيشها الناس ويتحركون في ظلها ويتصرفون بتأثير منها .

\*\*\*

ربما كانت هذه النقاط التسع ، هي النقاط الرئيسية النسبي نستطيع منها ان نتبين الخطوط الاساسية العامة للفكر الذي انطلق منه برنامج العمل الوطني الذي قدمه الرئيس انور السادات لمشلي الشعب في المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي الذي عقد في القاهرة في أواخر شهر يوليو ( تموز ) الماضي . وربما كانت هذه النقاط هي ما نستطيع ان نتبين منه الامتداد الطبيعي لفكر عبد الناصر في الميثاق الوطني الذي صدر عن المؤتمر القومي الاول عام ١٩٦٢ وفي

وفي المجال التنظيمي نستطيع ان نقف عند علامة أخرى :

... « ان الديمقراطية تعني حرية الرأي والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف ، وايجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما يعني حق النقد وممارسة النقد الذاتي » .  
فالحرية - كما يحددها البرنامج في المجال التنظيمي السياسي - تعني ان تتاح للفرد الفرصة لكي يعترف بالرأي الذي يراه صوابا ، ولكي يعبر عن هذا الرأي في مواجهة الجماعة . ولكنها تعني ايضا ان للجماعة ، وللأفراد الآخرين ، اتحق في نقد الرأي اذا كان مخالفا لمصلحة الجماعة ، وعلى ان بنقد الانسان نفسه امام الجماعة ، أي أن يتخلص بنفسه من خطاه ، اذا اكتشف هذا الخطأ وافتنع بانه وقع فيه . وبهذا يقدم البرنامج اساسا جوهريا تحديته عن اتاحة الفرصة لنمو شخصية الانسان وقدرته الجماهير على ان تحكم نفسها بنفسها .

وفي مجال ثالث هو مجال الابداع الفني هذه المرة ، يحدد البرنامج تصوره عن الحرية بهذه الكلمات :

« ان أدباءنا وفنانينا وكتابتنا ، والعاملين في أجهزة الاعلام ، مطالبون بأن يقفوا هذا الموقف الثوري ، وبوجه خاص في هذه المرحلة المصرية من حياتنا ، وعلى الاتحاد الاشتراكي وأجهزة الدولة المختصة ، ان تقدم لهم كل عون وان تيسر لهم ظروف الابداع دون ما تدخل في حرية تفكيرهم ودون ما فرض لاسلوب معين لعملهم » .

في البداية يطالب البرنامج الابداء والفنانين والعاملين في أجهزة الاعلام بأن يقفوا هذا الموقف الثوري الذي حدده السطور السابقة مباشرة بقولها :

« اننا يجب ان نقف بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب ، ضد السلبية والتملق والتشهير بالناس ، والادعاء عليهم بما لم يقولوه او يفعلوه » .

هذا هو الموقف الاخلاقي في « جوهرة » ، الثوري كما يسميه البرنامج ، الذي يطلبه البرنامج من الفنانين والادباء والاعلاميين . انهم بناء وجدان الأمة ، ولا بد ان يقوم هذا الوجدان على اساس من الشجاعة والصدق والاستقامة والفعالية واحترام العمل وتقدير الانسان . ولكن البرنامج يرى ان حرية الفنان هي حرية ابداعه ، وان حرية الكاتب هي في ان يقول ما يراه صوابا وان يفكر في حرية ، وان وظيفة الدولة وأجهزتها ووظيفة الاتحاد الاشتراكي هي توفير الظروف التي تحقق للفنان والكاتب هذه الحرية « دون ما فسرس لاسلوب معين لعملهم » .

\*\*\*

ان النظرة الاولى الى ما يقوله البرنامج عن جهاز الدولة ، لتدلنا على مقدار احساس القيادة السياسية التي وضعته بضخامة المشاكل التي تواجهها ، وبالطريق الصحيح لمواجهةها ، طريق الرقابة الشعبية المباشرة :

... « ان وضع أجهزة الدولة في خدمة الشعب لا يمكن ان يتحقق بدون تأكيد رقابة الجماهير عليها ومنح المواطنين من خلال تنظيماتهم الحق في ان يلجأوا الى الدعي العام عندما يرون انحرافا عن القانون او سوء استخدام للسلطة . ولا بد ان تفتح الابواب الى تولي المناصب القيادية امام العناصر الشابة المثقفة وبوجه خاص من ابناء العمال والفلاحين ... » .

فان تتحول أجهزة الدولة الى خادمة للشعب ، وان تتحقق رقابة التنظيمات الشعبية على هذه الأجهزة ، وان يصبح القضاء قادرا على ردع أي انحراف لهذه الأجهزة عن مسار « الشرعية الاشتراكية » لمجتمعنا ، هذه الشروط مجتمعة لم يكنف بها البرنامج لضمان قيام أجهزة الدولة بوظيفتها كخادمة للجماهير ، وانما اضاف شرطه الاساسي الاخير ، وهو ان تفتح ابواب المناصب القيادية

امام العناصر الشابة المثقفة : « وبوجه خاص من ابناء العمال والفلاحين ... » .

ليست هذه همة من البرنامج ولا من القيادة السياسية نم بها على طبقتنا العاملة وفلاحينا ، وانما هي ثمرة النظرة العلمية التي تنم عن الوعي بالسبب الحقيقي والجوهري للسلبات التي ظهرت في تجربتنا الوطنية للتقدم والنمو طوال السنوات العشر السابقة . ان احكامر انفتاح العليا في المجتمع لتلك المناصب القيادية ، واستمرارها في وضعها باعتبارها المصدر الوحيد للقيم الاجتماعية والاخلاقية « الجديدة » في مجتمعنا ، وغيبة « ابناء العمال والفلاحين » المثقفين بروح الثورة والتحرر والاشتراكية عن هذه المناصب ، هو المسؤول عن معظم تلك السلبات التي كان أظهرها نحول أجهزة الدولة الى أجهزة مستعجلة على الشعب وليست خادمة له ، وهو الامر ان الذي يضع البرنامج تأكيدا فويا على ضرورة تصحيحه .

\*\*\*

تدلنا اذن هذه الملامح العامة للفكر الذي انطلق منه انصور السادات وهو يضع اول برنامج حقيقي للاتحاد الاشتراكي - مستندا الى ميثاق العمل الوطني وبرنامج ٣ مارس - في مصر ، تدلنا على حقيقتين اساسيتين :

● ان استمرار ثورة ٢٣ يوليو وطورها انما يعني اولاً اطراد وضوحها الفكري دون التواء او خوف رغم كل العوقات .

● ان السير في سبيل ارساء الاسس اللازمة للتحويل نحو الاشتراكية ينبغي ان ترافقه على الدوام مهمة ربما كانت اكثر صعوبة ، وهي انجاز المهام التي لم تتم في عصور سابقة ، والتي كان على شعبنا ان ينجزها ، لولا ظروف التاريخ الموضوعية وفي القرون الاربعة الماضية ، والتي أنجزتها شعوب العالم المتقدمة عبر اربعمائة عام ، حققت في اثنائها دولها العلمانية ، ورسخت قيم الحرية الفردية ، وتطلبت على الامية ، وارسست تقاليد الديمقراطية ، واقامت مؤسساتها الحاكمة على اساس انها مؤسسات للخدمة الاجتماعية ، واشاعت الاحساس بالانتماء القومي وبالولاء للوطن . الفرق بين ما أنجزته هذه الشعوب ، وبين ما يجب علينا ان ننجزه هو انها حققت ما حققته في اطار السيطرة العالمية للطبقات الرأسمالية التي سرعان ما أصبحت معادية للتقدم ولفكرة التقدم في حد ذاتها ، بينما علينا ان نحقق ما ينبغي تحقيقه في اطار التحرر العام من هذه السيطرة ، واقامة الدولة الاشتراكية في عصر نمو الاشتراكية وانتصار ثورات التحرر الوطني ، واقامة دولة الشعب العامل ، مالك ادوات انتاجه ومالك مصيره ، حيث لا قيمة للانسان الا بما يعمله وبما يقدمه لبني وطنه وللشعبية .

\*\*\*

نقطنان آخرين لا بد من التعرض لهما هنا ، ونحن نعرض اهم الملامح والثمرات الفكرية لبرنامج العمل الوطني للاتحاد الاشتراكي العربي في مصر :

● الاهمية الفكرية لوجود « برنامج عمل » فعلي للتنظيم السياسي القائد .

● الدلالة القومية لهذا البرنامج وللمناقشات التي دارت حوله . فلا يمكن ان يكتمل بناء أي تنظيم سياسي دون « برنامج » يحدد اهدافه المرحلة ، في مرحلة بعينها ، ويرسم هذه الاهداف السياسية والاقتصادية والعمرائية والتعليمية والثقافية ... الخ .

التنظيم السياسي دون برنامج هيكل قد تمتلئ رأسه بافكار عظيمة . ولكن تظل يده بلا عمل نتجانه ، وتظل عيناه تنتظران في فراغ وتظل قدماه سائختين في الرمل . لقد وفر الميثاق الوطني وبرنامج ٣ مارس الاساس النظري الذي يمتلئ به الرأس وتعتمد عليه في رسم صورة العمل وتصور المستقبل . ولكن برامج العمل ظلت

خطوة عربية للربط بين اخر مراحل الثورة الوطنية واول مراحل الثورة الاجتماعية على المستوى العربي كله ولصالح الشعب العربي كله في كل قطر تشرق فيه شرارة الثورة الوطنية او تلمع بارقة للثورة الاجتماعية .

ان برنامج العمل الوطني في مصر ، الذي يهدف الى تأكيد ملامح البناء اللاراسمالي والتحول الى الاشتراكية ، والى تأكيد الترابط بين التحرر الاقتصادي وتحرر المواطن السياسي ، بين المكتسبات الاشتراكية وبين الديمقراطية ، ومناقشات المفكرين المصريين حوله ( وخصوصا حول خريطة جديدة لمصر التي افتتحها في الاهرام احمد بهاء الدين واشترك فيها كثيرون ابرزهم الدكتور جمال حمدان والدكتور محمد عزت سلامة ) افول ان هذا البرنامج وتلك المناقشات تهدف الى غرض اساسي : بناء مصر العربية القومية القادرة على حمل مسؤوليتها المصيرية في معركة التحرب ، وفي معركة السلام بعدها التي قد تكون اكثر تعقيدا وابعد مدى واطول عمرا !.

القاهرة سامي خشبة

\*\*\*

ع.ع.س

هجوم الفكر .. عندنا

رسالة دمشق من محيي الدين صبحي

« حكومية » في جوهرها ، تضعها الحكومة وتشرف اجهزتها على تنفيذها ، وتقدم في النهاية تقاريرها الى مستويات السلطنة التنفيذية او التشريعية او السياسية العليا لكي توافق عليها او تبدي اعتراضاتها . ولكن التنظيم القائد كان غائبا عن هذا العمل الذي لا بد ان ينظر اليه ، في دولة تتحول الى الاشتراكية ، باعتباره اخطر ما يحلم به الشعب العامل واكبر ما ينجزه واعظم ما يضحى من اجله : عمل بناء الوطن بناء جديدا وانسانيا ومنطلقا من كسل النواحي .

واذا حصل التنظيم السياسي على برنامج عمله ، واعلن التزامه به في مرحلة محددة ( وهذا البرنامج يمتد لرحلة السنوات العشر المقبلة باستثناء بعض اهدافه مثل محو الامية التي تقتصر على خمس سنوات ، او اعادة بناء قرى الريف المصري التي تمتد الى عشرين عاما ) واصبح التنظيم السياسي مسؤولا عن تنفيذ برنامجه واصبح هو مصدر السلطات في الدولة واعلى هيئة رقابية تمارس الجماهير من خلال تنظيماته رقابتها على اجهزة الدولة ، حينئذ يصبح التنظيم السياسي قائدا حقا ، وقادرا على تطبيق قوانين عمله الداخلية حقا : قوانين انتخاب مستوياته القيادية ، ومساءلة هذه المستويات عما انجزته من انصبتها من البرنامج ، وما درسته من مجالات عملها ، وما وضعته من برامج جزئية في هذه المجالات ، وما نفذته من تلك البرامج ، واوجد النقد التي يمكن ان توجه اليه ووجه التقدير ووسائل اصلاح الاخطاء او مضاعفة الايجابيات ، باختصار يصبح « البرنامج » ومهمة تنفيذه هو الموضوع المادي لنشاط التنظيم وعمله ونضاله ، ويصبح هذا الموضوع المادي هو المجال الذي يربى فيه التنظيم السياسي نفسه وتعلم الجماهير فيه « ممارسة الحكم والديموقراطية » .

وهذه هي القيمة الفكرية الاساسية لوجود برنامج عمل للتنظيم السياسي في مصر : قيمة « تشغيل » التنظيم في مجال مهادي وموضوعي محدد ومعروف ، وقيمة تربية التنظيم نفسه ، وتعليم الجماهير كيفية « تشغيل » نفسها وقياداتها ومراقبتها بهدف تنمية حياتها . بتعمير اكثر تمهيقا وتجريدا ، تصبح القيمة الفكرية لوجود هذا البرنامج : قيمة تربوية وعملية : تربية التنظيم والجماهير ، وتحديد آفاق العمل الوطني بحدود الممكنات التي تتحقق حتى لا يضيع التنظيم وتضيع الجماهير في سهوب المستحيلات التي لا تكف عن الحلم بها .

\*

اما عن الدلالة القومية لهذا البرنامج وللمناقشات التي دارت حوله فيجب ان ننظر اليها من زاويتين :

● زاوية اهمية البناء الداخلي في مصر واهمية صلابته واقامته على اسس موضوعية من اجل المعركة المصيرية التي يخوضها الشعب العربي كله وتشكل مصر رأس حربته الضاربة .

● وزاوية الحذر من اي نزعة اقليمية « مضادة » نكئ على تركيز المناقشات الدائرة حول برنامج العمل الوطني على مشاكل « البناء الداخلي في مصر » لكي تعلن ان مصر تبحث عن خلاصها الدائم منفردة . علينا ان نحذر من كسل من يظن ان البناء القومي الوطني والعلمي لاي قطر من اقطارنا العربية سيؤدي الى « انزال » هذا القطر . على العكس ، ان مصر مثلا لم تكتشف هويتها القومية الصحيحة ، الا في ظل انتصارها الوطني وبسببه ، وفي ظل ارتباط ممراتها الوطنية المحلية بالمعارك الوطنية في فلسطين وسوريا والسودان وليبيا والعراق واليمن . والجزائر ، ولم تمض مصر الى تأكيد اكتشافها لهويتها القومية الصحيحة الا في ظل خطواتها من اجل ان تعيد بناء نفسها من الداخل بناء يحقق بداية انتقال الشعب العربي كله من مراحل تخلفه ( شبه القبلية شبه الاقطاعية شبه الرأسمالية شبه الاستعمارية ) الى مرحلة البناء اللاراسمالي وبداية التحول الى الاشتراكية . وكانت مصر هي التي قدمت اول

في حديثنا عن النشاط الادبي في القطر العربي السوري ، كما تعودنا كل عام ، لا بد من وقفة عند مجلة « الموقف العربي » التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في القطر منذ مطلع ايار لعام 1971 . فقد كان النتاج الادبي السوري مبعثرا في مختلف المجالات وفي مختلف الاقطار ، وكان المرجو ان تصدر مجلة تعمل على تركيز الشخصية الادبية للقطر بعرض اهم الاعمال الادبية ونقدتها وتحليلها وتصوير مضموناتها ومناقشتها ، مع نشر النتاج الادبي الجديد من شعر وقصة ومسرح ، بحيث تصبح هذه المجلة مرجعا عن النشاط الادبي في القطر من مختلف نواحيه ، الابداعية والنقدية . وفي الواقع ، فان النشاط الادبي لكتاب القطر يستحق مجلة تستقطبه وتسلم الفؤاد عليه ، خاصة بعد ان بلغ من الانتشار والتشعب مبلغا اسهم فيه بقسط وافر من التجديد والتطوير في الادب العربي قاطبة . ان اسماء مثل نزار قباني في الشعر وذكريا تامر في القصة وعبدالسلام العجيلي في القصة والرواية تستحق ان نقف طويلا عند تأثيرها في تطوير الادب العربي في الستينات وتقدمه بغطائهم الى مشارف السبعينات بثقة ادب يطمح الى التعبير عن امة ، سواء كان التعبير على الصعيد الداخلي في عملية التحول الاشتراكي وضرب الاقطاع والرأسمالية . او على الصعيد الشخصي في عرض الهموم الخاصة لفرد واع في مجتمع ما زالت تحكمه اخلاق وتقاليد سلفية تتسلسل من عصور وأد البنات ابان ولادتهن الى عصور قتلهن في جرائم « الشرف الرفيع » التي يعطيها القانون اسبابا مخففة !!

ولكن رؤي أيضا ان اهتمام المجلة بالنتاج المحلي يجب الايشقلها عن المشاركة في نشر النتاج العربي والاتصال باوسع قطاع من الابداء العرب لان هذا الادب في جوهره ادب واحد يعبر عن امة واحدة ، تشابه فيها البنى الفوقية والتحتية ، كما تتماثل التطلعات والامال والايخاطار والمعارك . فاذا أضفنا الى ذلك حاجة المجلة الى نوافذ تطل منها على الادب العالمي والحركات الادبية التي تظهر في القسمين المتقدم والتخلف من هذا العالم ، اكتملت لدينا الصورة التي تتكون عليها المجلة . ومع ان الحكم يكون مبكرا على مجلة لم تصدر اكثر من اربعة اعداد بعد ، فلا بد ان نلاحظ ، بدافع

الامانة ، ان قسم التحرير فيها ضعيف . وهو القسم الذي يتعلق بمراجعات الكتب وعرض انشطة العائلي ، كذلك فان التوسع في نشر النتاج المحلي والعربي كان على حساب عرض الاتجاهات العالمية في الادب . الا ان في المجلة باباً ظليماً بحق ، هو باب « شاعر وموفقا » ففي هذا الباب يسرد كل شاعر كبير تجربته الشعرية ويعرض عناصر رؤيته الفنية ويذكر مكونات ثقافته ويسرد مراحل تطوره وينسوه بأثر النقد والنفاد في تقييم شعره وتقويمه . الخ . عناصر هذا الباب الفريد الذي يجمع بين المذكرات والانطباعات وبؤلف يبين التقرير الموضوعي والحلم الشخصي لفرد موهوب يطل على الدنيا برؤيا خاصة ويعيش في هذه المرحلة التاريخية ضمن اطار قومي تتجاذبه نوازع شتى وضرورات مبنية . وقد اجريت حتى الآن وعلى التوالي مقابلات مع كل من اشعراء : سليمان العيسى ، عبدالوهاب البياتي ، محمد الحريري ، عبد المعطي حجازي . وقد اجري المقابلة الاولى رئيس التحرير واجريت بقية المقابلات بنفسه فطمحا من خلالها الى بلورة نوع من الفكر الادبي ، نحن بحاجة اليه . ان تراكم هذا النوع من تحليل التجارب لا بد وان يؤدي في النهاية الى شيء من النظرة العربية الى فن الشعر ، فاذا توسع الباب في السنوات القادمة ليشمل الروائيين والقصاصين ، صار بالامكان ان نبلور مفهوما عربيا للادب الحديث والانواع الادبية . وفي هذا المجال ، تجدر الاشارة ايضا الى دراستين نفسييتين في الادب العربي الحديث كتبهما الاستاذ صدقي اسماعيل ، رئيس التحرير ورئيس الاتحاد ورئيس المجلس الاعلى للفنون والآداب . وقد عالج في الدراسة الثانية « ازمة الاغتراب في تجربة الاديب العربي المعاصر » ثلاثة نماذج من ادب الستينات وصفها بأنها « تحمل طابع التجديد في المضمون والاداء » وهي اقرب الى ان تكون « عينات » من محاولة التعبير عن تجربة الاغتراب في الشعر والقصة والمسرح .

وقد عالج في النموذج الاول الاغتراب في تجربة الحب لدى عدد من شعراء الجيل الجديد في سوريا ( علي كنعان ، شوقي بغدادى ، علي الجندي ، ممدوح عدوان ، محمد عمران ) ..

( .. ورغم جميع ورائات الكتب ، تتركز شخصية الجنس الآخر في الحبيبة او الخطيبة او الزوجة . البديل الطبيعي للام التي كانت مصدر الطمأنينة والتمتع ، ولكن القسر الاجتماعي لم يكن بعزل المرأة ، بل سلبها القدرة على الحب والاستجابة للجنس ، منذ ان وجد فيها « وسيلة » او « اداة » يمكن استخدامها لاي شيء آخر . سلمة من اجل المال ، موضع تجربة للشرف ، وبالتالي مصدر شعور دائم بالعار « المتوقع » . الحرمان الكلي من الثقة ، وبالتالي السبي الارياب بكل موقف عاطفي محصن يخضع لحرية الاختيار ، بسبب تبعيتها المطلقة للعائلة او للرجل . امام هذا الواقع « الاثوي » - اذا صح التعبير - تتراجع تجربة الحب في غمسة من الانتظار ، ويستيقظ العنين الى الام ، الى الطفولة ، وتهيمن من جديد قسوة « المجرم » الذي يحرض على الاغتراب والحزن والغرام ) .

فاذا مضينا عن « الموقف الادبي » الى « المعرفة » التي كادت تلبس عامها العاشر ، وجدناها في تموز تفرد عددا خاصا درجت عليه كل عام لذكرى الفكر العربي زكي الاسوسزي ، وهو من اوائل المفكرين العرب الذين وعوا ان لا خلاص للعرب الا بوحدتهم . ولا عجب في ذلك فهو من « فلسطين الاولى » - من لواء الاسكندرون السني انفتحت فرنسا وبريطانيا على سلخه من الاراضي العربية السورية وتقديمه الى الجمهورية التركية الوليدة عربونا منها ودليل صداقة الدولتين الحليفين للدولة الناشئة بغية وقوفها على الحياد تجاه الصراع الناشب في اوربا بين المانيا والحلفاء في عام ١٩٣٨ ثم فصل لواء الاسكندرون عن سوريا ، فتشرد بذلك مليون مواطن عربي وقبع مليون آخر تحت اسوا انواع الاستعمار العرقي بحيث يمنعون من شراء الاراضي او تدريس اللغة العربية او التنقل .. مما نشأ

مشبه في عام ١٩٤٨ في فلسطين الثانية حيث شرد مليون عربي اخر واستعمر مليون اخر ، ومما نشأ مشيل جديد ته بعد حزيران ١٩٦٧ فشرد مليون عربي في الفناء واستعمر مليون في الضفة الغربية وذهبت اراضي الجولان باكملها ..

وليت الاستاذ اديب اللجمي رئيس تحرير المعرفة ومستعد وزير الثقافة خصص عددا من الصفحات لعرض قضية لواء الاسكندرون والاستعمار التركي في معرض حديثه عن ابن انلواء . اما الفصل بين القضية والرجل ، بين الارض وسكانها ، بين التاريخ وصانعيه ، فامر غير مستساغ مهما كانت الظروف الدولية المحيطة بالعرب تجبرهم على ان يسكتوا عن قضية ليطالبوا بقضايا .. على ان العدد جاء واقيا في معالجة الجوانب المتعددة لمقربة الارسوزي ، ففيه عالج الاستاذ فائز اسماعيل فكرة الوحدة العربية عند الارسوزي ، وشرح الشاعر سليمان العيسى « البدايات » التي يمثلها الارسوزي وبخاصة في انشاء حزب البعث . وبحث الكتاب صدقي اسماعيل موضوع الوجدان القومي لدى الارسوزي كما ان الباحث عبدالحميد الحسن تطرق الى نظرية الارسوزي في اللغة العربية .

غير ان في العدد مذكرات او ذكريات كتبها الاساذ فائز اسماعيل ، الرجل الذي الهته تعاليم الارسوزي ايمانا وحدوا ملامتها فانطلق في العمل السياسي داخل القطر العربي اسوري بصادم قوى الانفصال بوجهيه الرجعي والتقدمي ، ويتحمل في سبيل وحديته الوانا من الاضطهاد والملاحقة والشقاء لم يكن وحيدا في مجابته لانه دائما كان في طبيعة المصادمين ومثلا للصلابة والثبات. وانا في الحقيقة سعيد بان اقرأ له كل ما يكتب ، واتمنى في غمرة مهامه القومية الجسيمة ان يكون مهتما بكتابة مذكراته مثلما اهتم بكتابة ذكرياته عن زميله واستاذه وابن لوائه الارسوزي .

يعيد فائز اسماعيل الى الاذهان ما كان يردد ، الارسوزي « لا خلاف في العروبة ، والخلاف فيما عداها » .

« ما وزن اتسبانا الى الامة العربية اذا لم نبرهن بنضالنا على هذا الانتساب » « لا وحدة دون وحديين » .

« الم تروا الاستعمار كيف يدعم الحكام العرب ما داموا يمثلون مصالحه في اقصاء الشعب عن قضيتهم القومية الكبرى ، والهائه بالمشاكل المحلية المتغلة !

انه لا يرى غضاضة من الانتصارات عليه في القطر، وهو نفسه الذي كان يطلق الزعامات الكرتونية المهترئة مضفيا عليها كل القاب البطولة ، فيبرزها باحسن شكل ما دامت في جو القطر الصغير ولسه .

اما حين تكون ثمة نامة باسم العروبة وللعروبة فهو الحيوان البشر الذي تعرفون .

انظروا الى الاستعمار كيف يحارب الاحزاب القومية بشراسة محاولا القضاء عليها ، اما حين يحارب الاحزاب القطرية فهو في حقيقة الامر يدعمها ويؤيدها بافساح المجال امامها للانتصار عليه .

الم تروه كيف كيف يطارد القادة الذين يدعون الى وحدة العرب ليؤيد الاخرين بالمقابل !! .

الم يخلق هو نفسه احزابا قطرية ليفلسف القومية للقطر الصغير في سبيل تجزئة الامة العربية الى قوميات ، وببشرة جهودها .. كل هذا خشية نضال الوحدة .

الوحدة بالنسبة للعرب هي القدر ، وانها السبيل الوحيد الي كل انتصاراتنا القومية ..

يقينا ان المناضل فائز اسماعيل قد وعى الدرس وأوفى، لان اختياره لهذا الجانب من الذكريات ، في هذه الفترة بالذات ليجهل اعمق المعاني واتمها تكريما للارسوزي وتوضيحا لرسالته الوحدوية .

وتنهجه.. )

ويكتب بيتو :

( أن لينين لم يحقق الثورة الروسية إلا بفهمه لروسيا من صحاري الثلوج في سيبيريا إلى فيافي الاستبس ، إلى صواري وازفة موسكو وبطرسبرج . ولم يحقق لينين الثورة بأجاده للنظرية بقدر ما حققها بفهمه الإنساني المباشر للفلاحين الروس والعمل الروس والمثقفين الروس . ونفس الشيء في الصين عند ماوتسي تونغ ... )

ويكتب أحمد سيكوتوري :

( أن الماركسية تنبخر وتذوب حينما تنتقل من أوروبا وتصل إلى خط الاستواء ) .

.. أتست هذه النصوص شاهدا حيا على أن الأفكار ليست كتبا مقدسة ، وعلى أن التجربة الحية المباشرة هي التي تملك مقدرة الكشف عن الأفكار المناسبة ؟

ليست هذه النصوص شاهدا حيا على أن العاصرة لا تعني أن نتلقى كل شيء دون تمييز ، ولا تعني على الإطلاق أن نتقبل كل الأفكار الوافدة وكأنها حقائق مسلم بصحتها ؟

الثورة ٦ - ٦ - ١٩٧١

لقد أتضح جوهر المحاولة التي يريد صفوان قدسي أن يحمل الفكر العربي إليها . أنه يريد فكرا ماركسيا عربيا يخرج عن حدود تطبيق الاشتراكية ضمن الأطر القطرية ، أنه يريد فكرا عربيا قديما بنظرة قومية تستوعب تطلعات أممتنا مثلما تستوعب تراثها المزهرة . أنه يريد فكرا لا يتغلب ضمن ترداد الشعارات ولا يتفوق داخل انزعال الكيانات ولا يتعالى على الشعب فلا ندركه الافهام ولا يتخلف عند عقلية أتدين يدعون احتكاره فيخفقونه نسدة محافظتهم عليه : ( ان الفارئ العربي ما زال يقتات الكلمات التي فيلت لغير عصره ، وما زال يعيش على النصوص التي كتبت لغير عالمه ، وهو في ذلك مضطر إلى ابتلاع وجبة من الأفكار المحنطة دون أن يكون متأكدا مما يفعل على وجه التحديد .

وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، فان الفارئ العربي ما زال يعيش على الفكرة القائلة ان هناك تلاقا بين الماركسية والفرويدية ، دون ان يخطر له على بال ان ثمة محاولات مبذولة لاكتشاف ما هو مشترك بينهما .

... فمتى يخرج الفكر العربي المعاصر من جلده ؟

متى يكف عن ارتداء اقميص الحديد الذي يجعل بينه وبين العالم مسافة لا تقاس بالشهور والسنين ، وانما بالسنين الضوئية ؟ ( « الثورة » ٢٠ - ٦ - ١٩٧١

على ان المطالعات علمتنا الان نسلم تسليمنا سهلا بأصالة الذين يطالبون بالأصالة ويستنكرون الوضع الثقافي القائم ويعلمون انهم سيشدونه إلى اليسار أو إلى يسار اليسار ( لا أحد يعترف بأنه يشد نحو اليمين ) أو إلى الامام أو إلى الورد .

فهل ، بعد هذه الدعوى ، بإمكان صفوان قدسي أن يقدم تركيبا عمليا لمنظوره القومي التقدمي ؟

ان صفوان قدسي قدم دراسات متعددة على شكل مراجعات تخضع لمنظوره المذكور . وسأكتفي بنقل مقتطفات من مقال أثار دهشة وجدلا كبيرين ، وقد قدم صفوان لمقاله بشعار ( الفكر الرجعي مسلحا بشعار التقدمية ) . وعنوان المقال ( تحت مظلة اليسار ) .

( ... ان الفكر اللقومي - الذي هو في الأساس فكر رجعي - حاول بقدر ما يستطيع ان يرسخ أقدامه في الحياة الثقافية العربية عن طريق استعارة بعض اللفات التي تيريء ساحتها ، وهكذا فقد أصبح بالإمكان ان نرى في حياتنا الثقافية فكرا رجعيا مسلحا بالأقليمية والانزالية ، يرتدي مسوح اليسار ، وكان الهدف من ذلك ،

إلى هنا ، ونحن نتحدث عن أبحاث لا تثير الجدل ، أو ان احدا ما لا يستفز إلى درجة انتصدي نها دحضا وتفنيدا ومخالفة . إلا ان الحياة الأدبية والفكرية لا تسيير عنى هذه الوتيرة من المسألة والحياد ، على طريقة ( فل كلمك وامش ) ، بل ان التعارض والتضارب يصل إلى حدود عنيفة أحيانا ، حتى وتو اقتصرنا على ما هو مكتوب ، اما الاتهامات الشفهية و( السرية ) فحدث ولا حرج .

والذي أثار كل هذه الضجة وغدت آراؤه ماثرا للخلاف كاتب عربي شاب من دمشق اسمه صفوان قدسي . كان يكتب في (الطليعة) السورية منذ ما بعد حزيران تعليقات سياسية من منطلق قومي .

إلا ان طبيعة المجلة وطبيعة المرحلة قصرتا خلاف المخالفين له على ردود باردة .. أتى ان أتفق صفوان قدسي والناقد خلدون الشمعة على اصدار صفحة فكرية اسبوعية في صحيفة الثورة باسم ( قضايا معاصرة ) .. فقامت قيامة الحياة الفكرية المستنقعة ولم تقعد بعد . فماذا فعل صفوان قدسي حتى حرك المياه الآسنة في حياتنا الفكرية البليدة ؟

كتب صفوان قدسي في تقديم إحدى الصفحات الأولى :

تحاول هذه الصفحة أن ترى العالم بعين صفل ينكشف العالم ويتلمسه باصابعه العفنة الطرية للمرة الأولى .

وهذه المحاولة تنطلق من قاعدة اساسية ، وهي أنه في مواجهة عالم ضاعت فيه معاني الكلمات والالفاظ ، لا مناص من البحث عن كلمات والفاظ جديدة .

والعقل العربي ، الذي اعتاد بمرور الزمن على ممارسة نوع من الاسترخاء ، يحتاج إلى مصل مضاد يحفن به بحيث يصبح قادرا على ممارسة فعاليتيه بطريقة مؤثرة .

وهذا الاسترخاء العقلي نبدو ملامحه في نك الظاهرة التي يمكن تلمس آثارها وبصمات اصابعها المطبوعة فوق كل خلية من خلايانا ، وهي استمداد العقل العربي لقبول الافكار الجاهزة والصيغ المحفوظة والعبارات الصالحة لتداول في كل زمان ومكان ، دون ان يحاول بطريقة أو بأخرى ، بذل جهد حقيقي لقبينة هذه الافكار والصيغ والعبارات بهدف تصفيتها وتنقيتها ..

( « الثورة » ٣٠ - ٥ - ١٩٧١

بعد اسبوع ، يتقرب صفوان قدسي من هدفه خطوة أخرى فيكتب :

هناك نماذج من كتابات نحاول بقدر ما نستطيع ، أن لمقي دور العقل ، وان تمارس ارهابا فكريا عن طريق بث نوع من الإيحاء بانها وحدها هي التي تملك مفاتيح الحقيقة . وأكثر من ذلك ، فان هناك نماذج من كتابات تحاول أن تصنع كهوتنا جديدا يملك وحده ان يقول ما يقال وما لا يقال .

هذه الظاهرة المرضية التي يشكو منها الفكر العربي انما هي المحصلة الطبيعية للمحاولات المبذولة من أجل وضع العقل العربي داخل اقفاس موصدة ، وجعل الوجود العربي يتنفس برئة غسيرة عربية ..

وبطبيعة الحال، فان ابراز هذه الظاهرة والدعوة إلى استئصالها لا يعني بحال من الاحوال ان يتخذ ذريعة لاغلاق نوافذنا المظلة على العالم .. وانما هي في الأساس دعوة إلى استعمال العقل فسي رؤية العالم ...

.. وهذه الدعوة محاولة للتذكير بجهود مماثلة بذلتها ثقافات أخرى للتحرر من سطوة النصوص المحفوظة والعبارات الجاهزة .. يكتب ماوتسي تونغ :

( ان الصين الحديثة قد خرجت وتطورت من قلب الصين القديمة ، ونحن الذين نؤمن بالنظرية الماركسية للتاريخ يجب ان لا نقطع انفسنا عن كل ماضيها ، بل على العكس ، يجب ان نستعرضه

كله هو ادانة الفكر القومي وأظهاره بمظهر الفكر المتخلف عن مجارة اخر مواضات العصر .

والفارقة العجيبة فعلا هي أن اليسار الألفومي كان يجهل حقيقة مفادها أن الفكر القومي في حقيقته النهائيه فكر يساري وأن الوحدة العربية لا يمكن في نهاية المطاف إلا أن تكون وحدة القوى الثوريه العربية . وبوضوح أسد فان الممارسه العمليسه رسخت الاعتقاد القائل أنه تحت شعارات الوحدة العربية يمكن أن تندرج كل السمعات الأخرى ، وأنه بغير الوحدة العربية فان هذه الشعارات لا بد وأن تسقط شعارا بعد شعار . ولقد كان هذا بالفعل هو اعظم الدروس المستفادة من تجربة الانفصال .

ويذكرني كل ذلك بمحاولة بذلها نافذ مصري تركوب موجة اليسار ورفع الألفات التي تقدم له شهادة براءة كلما حاول أن يقول شيئا لا يجرؤ على فوله بغير هذه الألفات فهو بنسب اليسار يطعن في عرويه مصر . وهو باسم اليسار يحاول أن يبحث في التاريخ المصري عن حقيقة تؤكد أن مصر عالم قائم بذاته . وهو باسم اليسار يحاول أن يقول في عبدالناصر شيئا لا يجرؤ على فوله غير أولئك الدين اسقطتهم الثورة ووضعهم خارج التاريخ .

هذا النافذ المصري هو « غالي شكري » الذي صدر ته مؤخرا كتاب بحث عنوان « مذكرات نقافة نحضر » . وفي القسم الأخير من هذا الكتاب ، نشر غالي شكري صفحات مطوله عن ( عبدالناصر .. والثقفون ) ..

ويبدو أن هذه النصفحات بنصح أكثر من غيرها عن حقيقة هذا النافذ الذي يشتمل كتابه المذكور نموذجا لفكر الرجعي مسلحا بشعارات تقديمية .

يكتب غالي شكري عن جنازة عبدالناصر :

« ما هذا الذي رآه مصر ؟ هل انبعثت فجأة الروح القديمه لحضارة المصريين فاذا بهم يرون في عبدالناصر فرعوننا توحد فيه الملك والاله ؟ وهم إذ يرفضون الموت من قديم لا يصدقون مع نبيسه أن الله قد مات ..

.. ولماذا كانت الجماهير المطعونه وحدها هي انجسم الرئيسي للجنازة . وهي التي قاست الويلات ؟ هل هذه فرصتها لتوجهه الانظار اتي ما يجب أن يكون ؟ أم أن مصر لا تزال مجتمعا أبويا ، ورغم قسوة الأب فان موته يعني خراب الديار ؟ أم أن الشعب المصري مريض بالسادية يعشق معذبيه ويرفض مفارقتهم ، نعب قاصر يطلب الحماية ومهما كان ألوصي فانه بطل ؟»

لقد ثبت بالممارسة ، التي هي معيار الصواب والخطأ ، أن اليسار حين يخسر صفته القومية فانه يخسر القومية واليسارية في آن واحد ، وأنه حين يكسب صفته القومية فانه يكسب القومية واليسارية في الوقت نفسه .

فهل هناك من يسمع . ( « الثورة » ١ - ٨ - ١٩٧١ )

كنت اود أن اعرض الردود التي انهالت على صفوان - وافصد بها الردود التي كتبت ونشرت . لكنها مع الأسف لا تعرض وجهات نظر متماسكة وصلبة كالتي يقدمها صفوان . ومع ذلك فسوف اورد « عينه » من هذه الردود :

وقد جاءت محاولة صفوان قديمي فاشلة لسبب جوهري واحد وهو القفز الجهلواني من فوق الماركسية ، بوضعه جدارا وهميا بين « ماركسية القرن العشرين » بالناسبة .. هذا عنوان كتاب لغارودي ، ترجمه نزيه الحكيم وكتب مقدمته .. أحسب أنه ( قد لطمها ) من مقالات صفوان .. علما بأن كتاب غارودي بمقدمته أسبق في الظهور من التأليف من « قضايا معاصرة » .. و« ماركسية جديدة » - ماركسية عصرنا - وهذا أيضا عنوان كتاب لالياس مرقص يحاول فيه أن يثبت كما يثبت صفوان ، وعلى طريقته ، أن الماركسية ، تحولت إلى « مذهب وثوقي يملك مقدرة اكتشاف الحقيقة المطلقة » .. وبين

ماركسية القرن التاسع عشر أو الثامن عشر أو « الماركسية الرسمية - انتقيدية » كما يسميها غارودي وماركوز .

أن الجدار الوهمي الذي بناه من فراغ كسل من « مرفص والحكيم وغارودي وماركوز » .. هذا الخليط المتناقض وغير المتجانس - مع بعد الشبه بينهما - سرعان ما يهوي وتسقط وهميته لأن الماركسية هي الوحيدة بين كل النظريات التي لم تهمل جانباً مادياً أو روحياً « الحاجات النفسية » من جوانب الحياة الإنسانية ، وهي التي تعلمنا أن التاريخ محكوم بقوانين عامة ، تلك القوانين التي تعمل من خلال الأفراد الذين يتحركون بدافع من مصالحهم الطبقية والفردية ... )

( « الثورة » ١٨ - ٧ - ١٩٧١ )

وبالرغم من أنني تعمدت أن انقل هذا التقسيم بحرفيته فأنني اعترف بأنه في نظري لا يدل على شيء : اللهم إلا حماسة لفظية تجعل صاحبها يضرب بين التكمات والمعقبات والسياسات ضرب عشواء .

ولكن ما لنا ولكل هذا الصراع الذي لا ينتهي . لنفادر صحيفة « الثورة » إلى صحيفة « البحث » حيث يعمل الشاعر علي الجندي فيشرف على صفحة ادبية فيها ويكتب زاوية يومية محاولاً أن يخلق جوّاً أكثر هدوءاً وجمالاً وأبعد عن المشاكل . كتب علي الجندي في الصفحة الأدبية .

( « أن مجرد الرغبة في ابداع جديد متحرر من كل ما هو سلفي لا تكفي لاداعه . فبين الرغبة وتحقيقها آلاف من الإيمال النفسية والفكرية والجهد الإنساني القاتل ..

أن الرافض والمتمرد ، يتميز بشيء من صفات الرهينة ، فهدف الفنان الحقيقي ، ليس الشهرة ولا المال ، ولا الاحقاد الصفيورة الشخصية ولا المرأة ، أنه تجاوز لكل ذلك » .

( « البحث » ١٣ - ٨ - ١٩٧١ )

لا ريب في أن الشاعر علي الجندي إنسان متجدد في لهجة حديثه . ودعوته للشبان من الشعراء إلى الزهد والتجاوز قد تلقى صدًى في نفوس المتخلفين حوله من الشعراء الشبان خاصة إذا رجعوا إلى انتاجه الشعري - يتبصرون ما فيه من زهد وتجاوز للملذات والمرأة والاحقاد .. فاذا تركنا صفحته الأدبية وتابنا زاويته اليومية التي يعرض فيها همومه ، لفت نظرنا في احد تعليقاته قوله :

أنبياء هذا العصر ، لم يعودوا ذوي قسماط ودبعة وعيون حزينه راحمة .. انهم وجوه البؤس والثورة الماطخة بهباب الفحم ... والمعرة بتراب الحقول ..

ولو أننا تأملنا وجه واحد من قادوا الانتفاضة في امارة او مملكة من اقاليم العالم الثالث ، ثم القي القبض عليه لرأينا بين وجوه جلاديه المصوبيين فوهات بنادقهم أتى قلبه . وبين وجهه فسحة الأمل ، لاحسنا على وجهه المنعب مكان الذعر تحديثا وابتسامه عزلة واعتداد بما سيأتي » .

✱

.. وفي الختام لن يصدر هذا المقال في « الآداب » العزيزة الا وقد اجتمع الرؤساء الثلاثة في دمشق وتم استفتاء الشعوب العربية الثلاثة على دستور الاتحاد الثلاثي واعلان قيامه بناء على موافقة الامة وتحقيقا لتطلعاتها في تجسيد اهداف الوحدة والحريه والاشتراكية .. وما اظن أن هذه الحوارات التي نقلت إلى فراء الآداب طرفا منها ، بعيدة عن معركة الوحدة ، والشكل الذي يريدونها المفكرون القوميون أن تكون عليه .

محيي الدين صبحي

دمشق

## البيان القصصي

تلقينا من الأدباء زهدي الداودي وأنور الفسائي وصالح كاظم هذا البيان الذي أطلقوا عليه صفة « البيان القصصي - تسع موضوعات عن وضع القصة في العراق وتطورها المقبل »

نعاور جميعاً مرحلة ذات أهمية حاسمة في التاريخ البشري . مرحلة التحرر من الاستعمار بكافة أشكاله والتحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية . مرحلة انتقال إلى تأسيس مجتمع انساني متحرر من الاستغلال . ان العراق بملايينه ، بعربه واتراده وأقليته القومية ، يمثل قطاعاً هاماً من جبهة النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية . وهذه الجبهة بدورها تمثل قطاعاً هاماً من جبهة الشعوب في البلدان النامية ( التي حازت على استقلالها السياسي أو تلك التي لا تزال تكافح من أجل ذلك ) وشعوب المنظمة الاشتراكية وكل القوى التقدمية في البلدان الرأسمالية ، هذه الجبهة تمثل ، رغم ازدياد شراسة الاستعمار ، القوة التي ستكسب كل علاقات الإنتاج القائمة على الاستغلال وتهيئ عبر اشكال النضال والتطور المتعددة في البلدان المختلفة الخطوة الأولى لانتقال شاملة للإنسانية إلى عهد من التاريخ يتميز بمحتواه الانساني .

ان العراق من أجل أن يؤدي دوره في حركة التحرر العربية لا بد أن يطور كل طاقاته الذاتية إلى أقصى حد . وهذا يتم بالدرجة الأولى عبر التطوير الشامل للأساس المادي للمجتمع العراقي ( الإنتاج الصناعي والزراعي ) .

ان القاعدة الاقتصادية هذه تفرز جديداً ظواهر ومؤسسسات البناء الفوقي الممثلة في بعضها في النشاط الثقافي عامة ، الذي لا بد أن ينمو ضمن عملية بناء القاعدة الاقتصادية ويؤثر فيها عن طريق توعية الجماهير وتنظيمها وحشدتها من أجل هذا الهدف . والادب تبعاً لذلك ظاهرة اجتماعية وقطاع ثقافي هام ، يفرسب أشكالاً من التعبير ، جرى ويجري تقسيمها حسب أهدافها الوظيفية . ومن هذه الأشكال : القصة .

### \*\*\*

١ - ان القصة العراقية على الرغم من نشأتها قبل الحرب العالمية الثانية ، الا انها لم تبدأ بتطورها الملحوظ الا في عقد الخمسينات . ولهذا فنحن في مواجهة ظاهرة أدبية اجتماعية حديثة نسبياً . لقد كانت سنوات الخمسينات التي انتهت تاريخياً في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ سنوات تميزت بسيطرة الملكية الرابطة بالاستعمار وبحلف بغداد ويقوم متواصل منظم ضد كل القوى التقدمية التي كانت تكافح لاستقاط ذلك النظام الرجعي الفاسد . أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية فقد كان العراق بلداً متأخراً يعاني شعبه من الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي والقومي ( علاقات شبه اقطاعية في الزراعة ، طبقة كومبرادور ضفيلية في المدن ، البورجوازية الوطنية في مستوى منخفض من التطور ، الصناعة الوطنية تكاد تكون معدومة وتوظيفات عالية نسبياً للرأسمال التجاري ) . هذا بالإضافة إلى ان غالبية السكان كانت تعاني من الأمية . أما التكوين الطبقي فكان يتألف من غالبية فلاحية محرومة من أبسط مقومات الحياة الإنسانية ، تليها الطبقة العاملة ثم البورجوازية الوطنية والصغيرة التي كانت تضم فئة صغيرة من المثقفين . كل هؤلاء في مواجهة طبقة صغيرة من الاقطاعيين والبورجوازيين والكومبرادور المرتبطين اقتصادياً بمؤسسسات الاستعمار والرأسمال الأجنبي .

٢ - لقد تطورت القصة في أعوام الخمسينات كظاهرة اجتماعية أفرزها المجتمع العراقي كضرورة حيائية مثلت محتوى هذه القصة ومبرر وجودها ، ولم توجد أصلاً لأن فئة من المثقفين ارادت ان يكتب او تعبر عن نفسها . على ان هذه الحقيقة لا تعني بالضرورة ان كتاب القصة كانوا دائماً وفي كل الحالات على وعي بها .

٣ - ان حركة وتطور المجتمع في ظرف تاريخي معين يوجدان اشكالاً معينة للتعبير ، وتحكم هذه العملية قوانين التطور الموضوعية ، ولكن انعكاس هذه العملية من خلال الفرد الذي هو واسطة للتعبير عملية معقدة ، وقد يحدث انحراف معين فننتقل من عملية اواصله بين الكاتب والمجتمع بحيث يصبح التبادل والمواصله مع الذات وغيرها ، او على مستوى سطحي مع الواقع الاجتماعي الذي كان المحرك في ظهور عملية التعبير المعينة اساساً ، وفي كلا الحالتين يقع انحراف عن الهدف الاساسي لهذه العملية .

ان انقصة في سني الخمسينات ، كوسيلة تعبير اجتماعية ، او بالأحرى تصورات الضمير الاجتماعي المحتج والثائر ، عانت من المباشرة والسفوف في الواقعية الساخنة وتحول مفهوم الادب الديمقراطي والواقعية الاشتراكية في أغلب الحالات إلى شعارات او مسح سطحي لظواهر المجتمع العراقي ، ذلك لان القصاصين لم يكونوا كلهم ودائماً في مستوى كامل من الوعي اولا ولقصور ذاتي في الكفاءة الادبية يمكن ارجاعه إلى اسباب اجتماعية وتاريخية أدبية ثانياً ( عدم وجود تقليد حقيقي للقصة في التراث مثلاً ، المستوى الثقافي للقصاصين ولجمهور القراء ، سيطرة الأمية .. الخ ) ، وعلى الرغم من هذا ثبت قصاصو الخمسينات شبه تقليد للقصة العراقية ، تقليد تقدمي يفخر به الادب العراقي .

٤ - وقد تميزت الفترة التالية من تطور القصة في العراق ( من ١٩٦٠ وحتى هزيمة حزيران ١٩٦٧ ) بانحراف حاد عن خط الخمسينات لا باتجاه تلافيف نواقص تلك التجربة وإنما باتجاه خلق ( تجربة جديدة ) . وكان من أهم أسباب هذا التحول الصراع والاضطراب السياسي الشامل في البلاد والذي رافقه تشر وتناكس وتطور بطيء في مجمل عملية ابناء والتفسير الاجتماعي وتصفيته علاقات الإنتاج الموروثة من العهد الملكي . فانقطع نتيجة لذلك أغلب كتاب القصة من فترة الخمسينات عن الكتابة وبضاعل الإنتاج القصصي التقدمي وبرز جيل كامل جديد من كتّاب القصة مؤلف في غالبيته من عناصر البورجوازية الصغيرة من طلاب الجامعات والموظفين والمعلمين ، وأغلبهم عانى شخصياً من نتائج الاضطراب السياسي الذي احدث رجحة في الضمير الاجتماعي . ونظر البعض الآخر بذلك بصورة غير مباشرة . وقد بدأ هذا الجيل بنشر نتاجه في الصحف والمجلات وعنى شكل مجموعات قصصية ، ووقع ارتفاع كمي مفاجيء لم يشهد له العراق مثيلاً من قبل . وفي سنوات الانكسار والياس السياسيين تحول هذا الجيل إلى ذاته وتم يعد يرى أو يؤمن الا بها وقد ساهم نتاج القصة الوافد من أوروبا الرأسمالية ومن الولايات المتحدة الاميركية والذي نعت ب « ادب الطليعة » أو « الادب الجديد » مساهمة حاسمة ، بمحتواه وشكله البورجوازيين ومضمونه الانساني الكاذب وبقيمة الانحطاطية واكتفائه بالتشخيص السلبي فقط لامراض الرأسمالية وناكيده على الشكلية ، في منح البديل والنموذج لهذا الجيل الباحث عن مخرج . وقد بدأ هذا الجيل يمارس محاكاة بلا وعي لهذا الادب منبهاً في نفس الوقت بنفسه إلى حد التطرف، متعصباً للبراليه . وقد ساهمت دور النشر بلبان خاصة في ترويح هذه البضاعة بقصد الربح لا غير .

وعلى الرغم من ان « ادب الطليعة » أفاد بعضاً من كتّاب القصة بأن منحهم نموذجاً مكنهم من الناحية الفنية البحتة - ونقول ذلك بتحفظ - من رؤية اللغة من زاوية جديدة ، وهذا امر مفيد نسبياً الا ان التخريب الذي أحدثه كان هائلاً وأدى إلى عزل القصاصين عن بيئتهم وجماهيرهم .

### \*\*\*

اما الفترة الممتدة من حزيران ١٩٦٧ وحتى الآن فليست الا امتداداً طبيعياً للفترة التي سبقتها مع فارق نسبي ، وذلك لان جيل كتّاب القصة الذي يسمى عادة بجيل الستينات انتقل إلى عقده السبعينات ولم يحمل معه من التحولات الايجابية التي نتجت عن هزيمة حزيران سواء في وعي الانسان العربي او في مجمل التكوين

والاستقطاب الاجتماعي والطبقي في المجتمع العربي عامة الا القليل ان كارثة حزيران واستناد الصراع بين حركة التحرر العربية والصهيونية وارتفاع انكساح الفلسطينيين الى مستوى نوعي اكثر تطوراً ، كل هذه الظواهر لم يجد الا انعكاساً سطحياً في نسيج كتاب القصة . على ان هذا انعكاساً اكتسب معنى مستوى بعض الافراد شيئاً من الوضوح في موقفه من الفصحة وموقفه هو في عملية التطوير الاجتماعي . وتميزت هذه الفترة أيضاً بعودة عدد من كتاب الخمسينات الى الكتابة والنشر .

٥ - يميز تطور القصة العراقية منذ ١٩٦٠ وحتى الآن بظهور ما يسمى بالنسك « الجديد » الذي يفترض انه المقابل المضاد للنسك التقليدي . الا ان هذا النسك « الجديد » مطروحاً في معظم أعمال كتاب القصة اصبح شكلاً صارخاً على المضمون ، رجعيًا وغير انساني في محتواه ، وهو مثال جديد لمذهب انشكلي ، ضارٍ على المضمون لانه متناقض معه ( في أغلب الحالات ، المضمون تقدمي وانساني هادف عامة ) ، رجعي لانه يمنع الوصول السليم الى التعرف على الواقع الموضوعي لانه في اساسه مثال للمذهبية انشكلية التي تشغل القاص والقارئ بالعبث الميتافيزيقي وليس بمحاولة النفوذ الى الواقع ومعرفته ومن ثم مساعدة القارئ على معرفة نفسه ودوره الاجتماعي وحقيقته كإنسان ، غير انساني لانه يمنع القصة من أداء دورها المحول والمغير في عملية التطوير الاجتماعي بحياة الشعب ، ولانه يعادي بذلك قوانين التطور . وواضح ان نوعي النافس لدى اغلب كتاب القصة هو السبب الذي جعل ويجعل هذا الانسفال الميتافيزيقي بالشكل ممكناً ومقنعاً .

٦ - ليس بالنيات الطيبة وحدها يمكن ان نصل الى انتاج القصة الجيدة التي تؤدي دورها الاجتماعي كاملاً . ان نيات كتاب القصة في العراق طيبة ومخلصة ولكن كتابة القصة نطل في الغالب ذاتية مغلقة متبوترة في بضعة هلوسات ميتافيزيكية . وليس من المبالغة ان نطالب القاص باجراء مراجعة جادة وصارمة مع نفسه وان يجيب على هذه الاسئلة : لمن اكتب ؟ . كيف اكتب تجاهه هير القراء ؟ . اين افق في الواقع الاجتماعي ؟ . كيف اؤدي دوري كهادم لكسل ما هو متاخر ورجعي وبنان لكل ما هو متطور وتقدمي ؟ ان القاص يجب ألا يرتعب من الوهم الذي يجعله عمله النقد انذابي نبذ وكانها فقدان لحرينه واصالته ، فالعكس هو الصحيح تماماً .

٧ - ان القصة في العراق لم تميز بعد بظاهرة الارتباط بقضايا الجماهير بمعناها العلمي . ان من ابسط المبادئ لتحقيق هذا الارتباط انسلاخ غالبية كتاب القصة انفسهم من اضرار عقليتهم وسلوكياتهم وانتمائهم البورجوازي الصغير . وهذا يفرض الاندماج مع جماهير الشعب والانتماء اليها وعدم النرفع عليها ومحاولة فهم مشاكلها ومعاناتها ووهجاتها وفتطس كل صلة بالسلوك البورجوازي الصغير المتقلب وبالميل التقليدي الى الانكماش والمشاريع الاليفة . لينزل القصاصون الى الناس ، الى العمل والحقل ، ليعرضوا أعمالهم على العمال والفلاحين ، ليحدثوا اولئك الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة عن قصصهم ، وعندئذ سيجدون تبادلًا في التجارب والافكار لم يكونوا يتوقعونه وبوضوحا وبصريحاً لمواقعهم ككتاب ، فالحكمة تمش دائماً بين الجماهير التي تعمل فعلاً من أجل عيشها وانتاج القيم المادية للمجتمع ، واذا كان الكتاب لا يعرفون حتى الآن ما الذي يجب عليهم ان يفعلوه بالضبط ، فسيقول لهم العمال والفلاحون ذلك وسيديرون عندئذ آية مفارقة نعيش فيها القصة العراقية .

٨ - ان المسؤولية الاجتماعية للقاص التي تؤلف محتوى عمله وانتاجه مهمة سياسية ذات محتوى نقابي ، ومن الضروري ان تثبت المنطق الفلسفي الاساسي لتحديد هذه المسؤولية والقبول بها ، اي مسألة العلاقة بين الواقع والوعي ، بين الموضوع وانعكاسه في الذات . ان القاص يجب ان ينتهي في هذه المسألة الى الايمان بالولوية الواقع على الوعي والموضوع على انعكاسه والا تحول الى

المشالية .

ان تثبت هذا المبدأ يوفر تنقيد القصة الخلاص من الاحكام الخاطئة حول علاقة الشكل والمضمون ( وهما وحدة جدلية ) والانطلاق من معرفة الجذر الايدولوجي للمسألة مما سيؤدي الى تفهيم صحيح للنتائج على اساس من قياس مدى انوار الاجتماعي البتاء الذي يقوم به .

ان المسؤولية الاجتماعية للقاص وارتباطه بقضايا الجماهير ونضالها يجب ان تثبت كخط سياسي لعمله وكمقياس نقدي وجمالي لتقييم نتاجه ، فالجميل هو كل ما هو حقيقي وما هو جميل وحقيقي مقاساً على عملية التطور الاجتماعي هو كل حقيقة ، واقعة ، حادث ، علاقة ظاهرة ، تساعد على تنشيط حركة التطور الصاعدة هذه .

٩ - ان القصة العراقية يجب ان تقوم بسدورها في بناء ادب عراقي ديمقراطي يكون اساساً لبناء ادب واقعي - اشتراكي . وهذا يعني : ادب يصدر من منطلق محلي ، وهذا مفهوم مضاد للانزالية والشوفينية والاقليمية ، ادب يصدر من منطلق محلي يأخذ بتطوير وابرار الميزات الايجابية للشخصية والبيئة العراقية ويمارس كشف الجوانب السلبية لكي نعرف انفسنا من خلال عرض اصمبل لها . وهذه خطوة اولى نحو رفع الادب العراقي الى مستوى ادب عالمي ذي محتوى انساني ، ادب يرتبط بقضايا جماهيرنا في العراق وبقضية الثورة العربية والثورة العالمية ويساهم في الكفاح ضد الاستعمار والرجعية العربية والصهيونية ويساند بقوة كفاح الشعب العربي الفلسطيني ، ادب يستند الى وضوح في المنطق والهدف والسي تقييم شامل موضوعي للتراث يبرز كل جوانبه الديمقراطية والانسانية .

\*\*\*

انطلاقاً من هذه الموضوعات التسع :

- نعلن ان تجربة الستينات رغم القدر الضئيل من التأثير الايجابي الذي تركته تجربة خاصة ونعلن نهايتها وضرورة البدء بمرحلة تحول حاسمة جديدة في القصة العراقية .

- نعلن ادانة « ادب الطليعة » وكل ما يشابهه من انجاهات سواء المستورد منها او المحلي ، ادانة تامة ولننزم بذلك . وهذا يعني ايضاً في رأينا انه في حالة نشر مثل هذا النتاج فان من الضروري الحق تفسير وتقييم نقديين به دائماً ، لكي يتمكن القارئ من تقييمه على حقيقته . وبالمقابل يجب ان تسعى الى توسيع وبرمجة عملية تعريف الكاتب والقارئ العراقيين بالادب التقدمي في البلدان العربية والدول الاشتراكية والرأسمالية ودول العالم الثالث وبتقاليد هذا الادب .

- يجب ان تستمر مفاخرة القاص العراقي للبحث عن افضل علاقة بين الشكل والمضمون من خلال العلاقة المتبادلة بين الفصاح والواقع الموضوعي .

- ندعو زملائنا كتاب القصة في العراق الى منافسة الموضوعات التسع التي طرحناها بشكل مفتوح في كافة وسائل الاعلام .

- ندعو وسائل الاعلام واتحاد الادباء في العراق والمؤسسات والهيئات الثقافية رسمية كانت ام غير رسمية الى منافسة الموضوعات ودراستها للوصول الى نتائج ايجابية ، ولتفرض البدء بمحاولات اولى لتأسيس العلاقة المباشرة بين القاص وجماهيره وذلك بوضع برنامج لقراءات قصصية عننية امام الجماهير وفي محلات العمل . وبذلك يمكن عملياً امتحان امكانيات خلق لغة قصصية مفهومة من قبل اغلبيية الجماهير التي لا تزال لا تعرف القراءة والكتابة .

لقد أدى العراق دائماً وبحيوية وجرأة دوره الطبيعي فسي احداث التحولات الادبية الهامة على المستويين المحلي والعربي ، وعليه اليوم ان يواصل هذا الدور .

لايبرغ ، ١ تموز ١٩٧١ .

زهدي الداودي  
أنور الفسائي  
صالح كاظم